

١ - على هامش الدفاع عن الشرق الأوسط للدكتور عمر حليق

السلوك السياسي مرونة يستطيعون معها أن يقبلوا على معالجة حدث من حوادث الساعة في عقل حذر واجتهاد فطن لا يضره أن يرفض أو أن يسارم على منفعة عاجلة في سبيل نصر مرتقب، أو أن يقبل ما يبدو أنه قبول نهائي، بينما هو يضرهم هذا هو المصلحة الجوهرية الآجلة للمسؤولية التي يتولاها مناع السياسة بالنيابة عن الأمة التي انتدبوا لتسيير شؤونها وخدمة مصالحها العامة

وقديراً بمضنا في ثنايا هذه السطور دعوة إلى الخداع وضرب من النفس ولكن الخديعة والنفس أن تكتم عن الناس الحقائق. والحقائق في السلوك السياسي تؤكد أن جوهر هذا السلوك صراع حاد قد يكون طابعه الصدق مرة والمراوغة مرة أخرى، واللباقة آناً والتهديد والوعيد آونة أخرى، ومثل هذا الصراع يفترض الخديعة والنفس فإذا اعتصم فريق بالصدق وحسن النية والثالثة المجردة وهو عالم بأن الفريق الآخر يتسلح بغير الصدق والثالثة والنية الصادقة فالفريق الأول يخدع نفسه ويضر بالأمانة القومية التي وكلته الأمة بالدفاع عنها وبصيانتها عن عبث العابثين

والدبلوماسية (وهي تعريف لهذا الاجتهاد الذي يحاول به مناع السياسة أن يصونوا الأمانة القومية التي وكلهم الشعب بها) جزء لا يتجزأ من سياسة السلم والحرب. والحد بين السلم والحرب خطر نظري لا وجود له إلا في مخيلة الناس. وقد قال حكماء العرب الأقدمون «الحرب خدعة» فإذا فسرنا هذه الحكمة تفسيراً صحيحاً فإن لنا أن نعتبر أن «السياسة خدعة» كذلك، والعبرة في الحكم والأمثال أن تتجاوز المنفعة العقلية وأن تطبق على جوهر السلوك الإنساني

وبعد فإن موضوع البحث هو مسألة (الدفاع عن الشرق الأوسط) وهي مسألة لها وضعية فريدة فوق أنها قضية خطيرة - فريدة لأنها مكتنفة بتيارات وعوامل على غاية من التعقيد والتشابك، وخطيرة لأنها تمس صميم الأمانة القومية التي يهتم بها كل مواطن عربي ويحمل لواء الدفاع عنها قادة الرأي وأولو الأمر من مناع السياسة في بلدان العرب. وعلى ذلك فإن الحديث عن مسألة الدفاع عن الشرق الأوسط هو الحديث أبرز ما يمترض حاضراً السياسة العربية من أحداث طارئة لا تقتصر على الأوضاع الداخلية للدول

يخيل إلى أن أكثرنا يميل إلى بحث المسائل الدولية بمقتضى قانونية. وأسالة الرأي في معالجة السياسة الدولية تقتضى عدم التمسك بالنظرة القانونية في تحليل حاضر أو مستقبل مشكلة من المشاكل الدولية. فالتانون الدولي نظام فكري مرن مطاط يتحمل ألف تفسير وتفسير وألف مخرج ومخرج. والقانون الدولي فلسفة سياسية جوهرها النموذج وعمادها الدبلوماسية المرنّة، وأبرز دعائمها اجتهاد لبق ذخيره عناصر متشعبة من التحليل الدقيق للعوامل السياسية والاقتصادية والفكرية الطارئة، والتيارات الهادئة أو العاصفة التي تمرى حاضر قضية من قضايا الساعة، والأهواء والنزعات وخفايا الأمور التي تكتنف هذه التيارات وتوجهها إلى هدف معين. وكل هذه الحقائق على قسط كبير من التعميد والتشابك يقتصر جوهرهم القانون الدولي ودساتيره المدونة عن تنفيذه وشرحه وتطبيق حرفية ذلك القانون عليه.

ولذلك فإن من غير الصواب أن نعالج المسائل الدولية على ضوء القانون الدولي وحده، بل علينا أن نذهب أبعد من ذلك ونؤكد مع كثير من المراقبين للسياسة الدولية بأن الحصافة تقتضى أن وضع القانون الدولي في زاوية بعيدة من مادة البحث، حتى إذا انتهينا من تحليل مسألة من المسائل الدولية على ضوء السياسة العملية والتيارات الممتدة المتشابكة (الاقتصادية والعسكرية والباطنية والتاريخية) التي تكتنفها، جلبنا القانون الدولي (أو بالأحرى هذا التراث من النماذج والسوابق والشروع والتعليقات التي تؤلف ما يسمى القانون الدولي) وطينا العينة النهائية لاجتهادنا في السياسة العملية بطلاء قانوني قشرته حساسة مطاطة تفصح المجال للكر والفكر وللتعديل والتفتيح

ومثل هذه الحصافة توفر لصناع السياسة وللمعنيين على

الركنية التي لا ترى الحقائق إلا من جنب واحد، وهذا شيء طبيعي مبني على العوامل القومية العنيفة التي تتفاعل في تفكير العرب هذه الأيام؛ وفصور الصحافة العربية وألسنة الرأي العام عن الأسباب في معالجة الشؤون الدولية عامة والناحية العربية في الشؤون الدولية على وجه الخصوص - معالجة دقيقة مسببة

وكل ما يطمع كاتب هذه السطور لتسجيله هنا هو جمع أكبر قسط مستطاع من الآراء والتعليقات والتصريحات وما تنطوي عليه سياسة بعض الدول (المنية بشؤون الشرق الأوسط) من مادة فكرية خاصة بموضوع الدفاع عن الشرق الأوسط، وتنسيق هذه المادة بحيث تعين الباحث في هذا الموضوع على تكوين فكرة شاملة عنه تكون ذخيرة نافعة للذين يهمهم التدقيق في مسألة الدفاع عن الشرق الأوسط على ضوء الصلحة الجهورية للحكومات والشعوب العربية؛ وعلى ضوء البرامج التي وضعها كلا المعسكرين المتخاصمين - السوفييتي والغربي - لاكتساب الشرق الأوسط إلى الخطيرة

وإن من الطبيعي أن يتسرب إلى معالجة هذا الموضوع الآراء الشخصية التي يحملها كاتب هذه السطور، فهذا تعدد الكاتب التجرد في تحليله لمسألة من المسائل فلا مفر له من أن يث في ثنايا السطور أطرافاً من تفكيره الخاص

والمنذر الصحيح الذي يعبر لكاتب هذه السطور إقدامه على دراسة مسألة الدفاع عن الشرق الأوسط كونه قد شغل بهذا الموضوع وتبعه بدقة في مراحلها العديدة، وحاول أن يلم بحقائقها وظواهرها، وأن يجمع أكبر عدد ممكن من الوثائق، وأن يزن مسألة الدفاع عن الشرق الأوسط بميزان التحليل المقارن لمسائل الدفاع عن مناطق جغرافية أخرى كالحلف الأطلسي والجيش الأوروبي وميثاق الدفاع عن الباسفيكي والتحالف الروسي - الصيني في الشرق الأقصى ومكانة الشرق الأوسط في كلا المعسكرين السوفييتي والغربي

وعلى ضوء هذا التمهيد فلتشرع في استعراض هذا الموضوع في شيء من الإطالة

العربية فحسب؛ بل تتصل اتصالاً مباشراً بمستقبل الكيان العربي بأسره كجموعة إقليمية وكدول منفردة، كما عسى مستقبل هذا الشعب اليهودي الذي يكمن في عقر دارنا ومستقبل العلاقات التي تربط دول الجامعة العربية بالعالم الخارجي - في الشرق والغرب

والحديث عن الدفاع عن الشرق الأوسط يختلف باختلاف الجهة التي يصدر عنها الحديث، فالعرب تنظر إليه نظرة خاصة، وتركيا تنظر إليه نظرة أخرى، وللبريطانيين فيه اجتهاد منفرد، وللأمريكان رأي خاص، وللفرنسيين كذلك تفسير معين، وموقف إسرائيل منه يختلف عن هؤلاء جميعاً

ولكن المحافل العامة إجمالاً حين تناول مسألة الدفاع عن الشرق الأوسط تفكر في أمور معينة تشترك فيها جميع الأوساط المعنية بالأمر - هذه الأمور هي :-

(١) - المركز الاستراتيجي للشرق العربي في خطط الدفاع عن الميدان الأوروبي - كلا المعسكرين الروسي والغربي، وهذه الاستراتيجية تشمل قناة السويس والطارات الجوية الصالحة لخطط حلفاء الغرب وما قد يفكر فيه الروس من خطط عسكرية مماثلة

(٢) - الثروة البترولية في هذا الشرق وأهميتها لعصب الجهاز الحربي لأي من المعسكرين المتطاحنين

(٣) - كون الشرق العربي نقطة التفرع إلى القارة الإفريقية التي لها في مستقبل الاقتصاد الأوروبي والأمريكي مكانة بارزة

(٤) - أهمية الشواطئ الشرقية للجزيرة العربية وخليج العجم في الخطط البحرية لأساطيل الحلفاء، في المحيط الهندي وفي الرغبة القديمة الكامنة في روسيا للوصول إلى منافذ مائية إلى هذه البحار الآسيوية وإلى البحر الأبيض المتوسط

وقد كثرت الحديث عن هذه الأمور - أو عن بعضها - لدرجة أصبحت مماثلتها من قبيل الكلام المعاد، وأصبح تحليل أوضاعها من قبيل الابتذال في الاجتهاد الفكري

ولكن الواقع أن معالجة الناس لهذه الأمور - وفي الشرق العربي خاصة - كانت ولا تزال مشوبة بطابع السطحية والنظرة